مكتبة

الشيوعية والثقافة:
طلاق مُرّ بعد زواج حميم (١-٢)

TONY JUDT
POSTWAR: A HISTORY OF EUROPE SINCE 1945

يلاحظ الكاتب والمؤرّخ توني جوت في كتابه «ما بعد الحرب–تاريخ أوروبا منذ ١٩٤٥» أن معظم مثقّفي أوروبا البارزين، في غربها وليس في الوسط والشرق فحسب، كانوا مع نهاية الحرب العالميّة الثانية في ثلاثيناتهم أو مطالع أربعيناتهم. يصحّ هذا، مثلاً لا حصراً، في جون بول سارتر وسيمون دوبوفوار الفرنسيّين صحّته في ألبرتو مورافيا الإيطاليّ. وهو عمر تلاؤمه المثل العليا، فضلاً عن البحث عن تأويل كامل ونقيّ للعالم وما فيه. وكثيراً ما واكب الحماسة العارمة للتغيير، عند جلّ المثقّفين الراغبين في إحراق هذا العالم «الملوّث والبورجوازيّ»، خجلٌ بالموقع الطبقيّ لأصحابه قياساً بالبروليتاريا الممجّدة التي يُفتَرض بها، حسب الأبجديّة الماركسيّة، أن تقود الخطى إلى المستقبل.

أمّا أوروبا الشرقيّة والوسطى فاختلفت لجهة دخول الجيش الروسيّ الأحمر إلى بلدانها وإقامته أنظمة شيوعيّة فيها. هكذا سريعاً ما تُرجمت المواقف النظريّة والعامّة بامتحانات محدّدة نجم عنها إبداء الحماسة الثقافيّة لذاك الجيش والأنظمة التي ينشئها. وكان من العوامل الأخرى لمبايعة قوى اليسار وسندها الاتّحاد السوفياتيّ الإحساسُ المرّ بالنازيّة التي احتلّت عديد البلدان الأوروبيّة الوسطى، وبعدائها الجلف للثقافة والمثقّفين، مصحوباً بشعور من الامتنان حيال الدور السوفياتيّ في تخليص تلك البلدان من الاحتلال الألمانيّ. لكنّ المشاعر المذكورة وجدت أيضاً ما يرفدها في تقليد أوروبيّ مفاده التبرم من النُظم المحليّة التقليديّة، بأبرشيّتها الضيّقة وأفقها المحدود اللذين لا يخاطبان أيّ حسّ ثقافيّ بقدر ما

يستحضران الاحتقار حياله.

إلى ذلك، ففي الوعي الشيوعيّ والنضاليّ لما بعد الحرب، كانت الحكمة السائدة، كما عبّر عن ذلك شيزلاف ميلوش ذات مرّة، أن المثقّفين ليسوا مطالبين بأن يفكّروا ويحدّدوا الفارق بين «الصحّ» و«الخطأ» وطريق الانتقال الممكن من هذا إلى ذاك، ناهيك عن التجرّؤ على المحرّم والتشكيك بـ«البديهيّات». فهذه مهمّة فائضة عن المثقّفين، فضلاً عن تعاليها على الجماهير والشعب. أمّا المهمّة المنوطة بهم فأن يفهموا ما يجري حولهم ويلتزموا به بأن يكونوا «ضدّ» الخطّ الآخر، أي أن يكونوا تقنيّي مواقف. وبدا هذا، رغم تناقضه مع الوظيفة المفترضة للمثقّف، مقبولاً لأسباب في عدادها أن الذين خرجوا من الحرب العالميّة الثانية لم يخرجوا من حربيّتهم وأخلاقيّتها الاستقطابيّة والحدّيّة التي نقلوها إلى الحيّز الثقافيّ. هكذا صارت الثقافة «جبهة» تقف في مواجهة «جبهة» أخرى.

بيد أن الحرب الباردة زادت في شعور مثقّفي أوروبا الوسطى بالعطالة: فلا موسكو معنيّة بتجاربهم ونماذجهم، ولا أوروبا الغربيّة، المفصولة عنهم والغافلة عمّا يجري عندهم، مكترثة بنتاجاتهم. وفي هذا المعنى كتب الرومانيّ ميرسيا إيلياد في ١٩٥٢ بما لا يخفى من انزعاج ومرارة: «ألا تدرك أوروبا أنها تعرّضت للإخصاء ببتر جزء من لحمها؟». وكان أن إسهامات بلدان ذات تقليد ثقافيّ عريق، كبولندا وهنغاريا، وُضعت في ثلاجة أو حُذفت من واقع الممارسة الثقافيّة في العالم.

وإذا بأوروبا الوسطى الغربيّة الناطقة بالألمانيّة، والتي كانت محرّك الثقافة الأوروبيّة في الثلث الأوّل من القرن العشرين، تكفّ عن الاشتغال الثقافيّ. ففيينا، رغم وقوعها في «العالم الحرّ»، لم تعد تستطيع أن تشعّ على الشرق، بل غدت عاجزة عن أن تضيء نفسها: ذاك أن انحسارها كان قد بدأ مع انهيار إمبراطورية آل هابسبورغ في ١٩١٨. وقد ضربها الفقر الماديّ ناهيك عن الثقافيّ مما تعاظم بعد اندماجها في ألمانيا النازيّة.

فالفلاسفة والرياضيّون والعلماء والاقتصاديّون النمساويون، مثلهم مثل معاصريهم الهنغاريّين، إمّا هربوا إلى المنافي في أوروبا الغربيّة وأميركا أو تعاونوا مع السلطات النازيّة أو قُتلوا. أمّا ألمانيا نفسها، المنارة الأعظم لأوروبا الوسطى، فباتت مدمّرة روحيّاً، وبالطبع مادّيّاً، بسبب الهجرة الثقافيّة الواسعة بعد ١٩٣٣ التي لم تترك وراءها إلاّ المتعاونين بصورة أو أخرى.

فحالة الفيلسوف «النازيّ» مارتن هايدغر لم تكن استثنائيّة، مع أنّها فريدة فقط لجهة حجم هايدغر الفكريّ. وهناك عشرات آلاف

المعلّمين والإعلاميّين وصغار المثقّفين ممن صحّ فيهم السلوك هذا نفسه. وزاد في إضعاف ألمانيا الثقافيّة، بعد الحرب، انشطارها ألمانيتين، إحداهما تؤكّد أنّها وريثة الماضي الألمانيّ «الجيّد»، أي المناهض للفاشيّة والتقدّميّ والمستنير. وكثيرون من المثقّفين والفنّانين وجدوا حينذاك ما يغريهم في دعم الشطر الشرقيّ والعيش فيه. ذاك أن الأخير ذهب أبعد كثيراً من ألمانيا الغربيّة في إدانة الماضي النازيّ وجَلده، ورحّب رسميّوه الشيوعيّون بالمؤرّخين والمسرحيّين والسينمائيّين الذين أرادوا تذكير جمهورهم بتلك الحقائق السوداء.

وقد كان من أسباب الحماسة الرسميّة لاستقبال هؤلاء أنّ المثقّفين الألمان يملكون قدرة على مخاطبة الأوروبيّين الغربيّين لا يملكها الرومانيّون أو حتّى البولنديّون والتشيك الأكثر أوروبيّة. وهم، من جانبهم، اطمأنوا إلى أن في وسعهم العودة غرباً إذا سارت الأمور على غير ما يرام، وعلى هذا النحو ظلّت الحال فعلاً حتّى ١٩٦١ حين بني الجدار. هكذا قرّر المسرحيّ الكبير برتولت بريخت، مثلاً لا حصراً، العيش في الشرقيّة.

تشكيك بالخرافات

هذه هي الأعذار لمثقّفي ما بعد الحرب. لكنْ شيئاً فشيئاً راحت الأمور تتغيّر، إذ حسب ما كتب لاحقاً ميلوفان دجيلاس، المنشقّ اليوغوسلافيّ الكبير وأحد أوائل المنشقّين في بلدان الكتلة: «التوتاليتاريّة، في البداية، حماسة وإيمان، وفقط بعد ذاك تصبح منظّمات وسلطة».

وبالتدريج، ومع قيام الأنظمة الشيوعيّة واتّضاح مدى الإفادة الروسيّة التوظيفيّة من تلك الأفكار لإخضاع شعوبهم وبلدانهم، بدأ المثقّفون، وكانوا شبّاناً يومذاك، يشكّكون بالخرافات تلك. هكذا لم تعد تحظى بترحيبهم تلك الدوغما الثنائيّة الشهيرة التي صاغها غدانوف، نظريّ ستالين الأوّل، بعد ١٩٤٨، عن «ثقافتين» متناحرتين، سيّما إصرارها على ضرورة اتّخاذ مواقف صائبة في كلّ شيء من علم النبات إلى الشعر.

والانزعاج بدا أقوى في البلدان الكاثوليكيّة التي كانت سابقاً تحت الحكم الهابسبورغيّ، إذ هي لم تملك نفس تقليد الطاعة والانتظام الذي عرفه العالم السلافيّ الأرثوذكسيّ. فمثقّفو أوروبا الوسطى أولئك كانوا، منذ القرن التاسع عشر، وتبعاً لانفتاحهم على أفكار الثورة الفرنسيّة، قد اعتادوا التحدّث بلسان «الشعب» و«الأمّة» و«الحريّة»،

فأرعبهم، من ثمّ، تحويلهم إلى ناطقين بلسان نظام وأجهزة. وهذا ناهيك عن تعاظم تعريضهم للقمع، الثقيل منه والخفيف، لأنّهم «كوزموبوليتيّون» أو «يهود» أو «طفيليّون» ممّا كثر الاتّهام به في العقد الأخير من الحكم الستالينيّ.

ومع وفاة «أب الشعوب»، في ١٩٥٣، كان قد هزل كثيراً التقليد الثقافيّ الشيوعيّ حتى في بلد كتشيكوسلوفاكيا كان الشيوعيّون فيه أقوى منهم في أيّ مكان آخر من بلدان «المعسكر». وهناك بدأ مبكراً السعي إلى «تجديد» الاشتراكيّة أو «إصلاحها»، الشيء الذي وجد تتويجه اللاحق عام ١٩٦٨، مع «ربيع براغ» الذي قاده أمين عام الحزب الشيوعيّ ألكسندر دوبتشيك. كذلك لم يعد التناقض قائماً بين الشيوعيّة وخصومها، على ما أشاعت الصورة الرسميّة والحزبيّة، بل بين النظم الشيوعيّة والجميع.

وفي رصد توني جوت لهذه العمليّة بعد الحرب العالميّة الثانية، أي عمليّة القران ثمّ الطلاق بين المثقّفين والشيوعيّة، وصولاً إلى تشيكوسلوفاكيا ١٩٦٨، يُستعاد موقف العديد من مثقّفي فرنسا، قبيل الحرب الباردة وإبّانها، من ستالين والنظام الشيوعي السوفياتيّ وما تفرّع عنه من أنظمة في بلدان الكتلة الشرقيّة السابقة.

وهذا ما لم يخرج عن سياق تاريخيّ محدّد لعب فيه الموقف من العنف دوراً مركزيّاً: فرغم الهزيمة والخضوع المذلّين لفرنسا في الحرب العالميّة الثانية، ونظام الجنرال بيتان في فيشي، ثم الإذعان، في سنوات ما بعد الحرب، لأميركا وبريطانيا، كانت الثقافة الفرنسيّة بمثابة الردّ على هذا كلّه والتعويض عنه، حتّى بدت باريس، في تشبّعها بالأيديولوجيا وبسجالاتها، عاصمة أوروبا آنذاك. ووضعٌ كهذا جعل التزام المثقّفين بالخيارات السياسيّة الحادّة، ممّا ذهب بعضهم بعيداً فيه، تحصيل حاصل. وفعلاً لم يكن هناك أكثر من مسألة العنف السياسيّ، ممّا لم يقتصر على يساريّيهم فحسب، مرآةً وتعبيراً عن ذلك.

فإيمانويل مونييه، مثلاً، رئيس تحرير مجلة «إسبري» وذو الحضور الفكريّ النافذ في الأوساط المسيحيّة، رأى في ١٩٤٩ أنّ من النفاق معارضة العنف أو الصراع الطبقيّ حين يُمارَس «العنف الأبيض» على ضحايا الرأسماليّة كلّ يوم. وكان من السهل على بلد شديد الانقسام والاستقطاب، أقلّه منذ الثورة الفرنسيّة، ألاّ يعثر في تقاليده الفكريّة والثقافيّة على ما يعزّز النظرة هذه: روت جورج ساند، مثلاً، عن نزهة قامت بها على السين في ١٨٣٥ مع صديق كان يشدّد على أهميّة الثورة البروليتاريّة الدمويّة، إذ «فقط

حين يجري السين وقد صار أحمرَ اللون، وحين تحترق باريس ويحتل الفقراء موقعهم الصائب، يمكن للعدالة والسلام أن يعمّا».

وبعد قرابة قرن تحدّث كاتب المقالات الانكليزيّ بيتر كوانّيلّ في مجلة «نيو ستايتسمان» عن «العبادة شبه المَرَضيّة للعنف التي يبدو أنها تسيطر على الكثيرين من الكتّاب الفرنسيين». عملاً بهذا التقليد، أعلن ادوار هيريو، سياسيّ الحزب الراديكاليّ المسنّ ورئيس الجمعيّة الوطنيّة حتى وفاته في ١٩٥٧، في إحدى مناسبات الاحتفال بعيد التحرير، أن الحياة السياسيّة الطبيعيّة لن يمكن استرجاعها قبل «أن تمرّ فرنسا في حمّام دمويّ».

تبرير القسوة

فحينما أصرّ سارتر ومعاصروه على أن العنف الشيوعيّ شكل من «الإنسانيّة البروليتاريّة» وأنّه «ولّادة التاريخ»، لم يكن بالغ الاستثنائيّة أو الفرادة. لكنّ الألفة مع العنف الثوريّ هيّأت المثقّفين مسبقاً للنظر بإيجابيّة وباعتذاريّة إلى التبرير السوفياتيّ للقسوة. ففي تعليقه، مثلاً، على محاكمة سلانسكي الاستعراضيّة في تشيكوسلوفاكيا عامي ١٩٥٢ و١٩٥٣ (حيث اتُّهم بعض الشيوعيّين الناقصي الستالينيّة بالتيتويّة والكوزموبوليتيّة والتروتسكيّة الخ...) قال مارسيل بيجو لمجلّة سارتر «الأزمنة الحديثة»، إن ما من خطأ في أن يقتل المرء خصومه السياسيّين. وكال المثقّفون الفرنسيّون الذين زاروا بلدان الكتلة الشرقيّة، فيما الشيوعيّة قيد البناء، المدائح الغنائيّة لما يجري هناك:

هكذا قال الشاعر والسوريالّي الكبير بول إيلوار، وهو يتحدّث في بوخارست في تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٩٤٨: «جئت من بلد لم يعد أحد فيه بعد اليوم يضحك، وما من أحد يغنّي. فرنسا في الظلّ. لكنّكم أنتم اكتشفتم إشراق شمس السعادة». وبعد سنة في هنغاريا قال هو نفسه: «في أعوام قليلة ستغدو السعادة القانون الأعلى». ولئن كان إيلوار شيوعيّاً، فعواطفه هذه انتشرت بين مثقّفين وفنّانين كثيرين لم ينضمّوا أبداً إلى الحزب.

وفي ١٩٤٨، بعد الانقلاب الشيوعيّ الشهير على الديمقراطية في تشيكوسلوفاكيا، بدت سيمون دو بوفوار متأكّدة من أنّ الشيوعيّين يسيرون على الطريق إلى النصر في كلّ مكان. وكان معاصرها بول نيتزان قد كتب، قبل عدّة سنوات، أن الفيلسوف الثوريّ لا يستطيع أن يكون فعّالا إلاّ إذا اختار الطبقة التي تحمل الثورة فيما الشيوعيّون هم ممثّلو تلك الطبقة. هكذا بدا المثقّفون الملتزمون مضطرّين أن ينحازوا إلى «صفّ

التقدّم والتاريخ» بغضّ النظر عن كلّ اعتبار.

والراهن أن أهميّة المسألة الشيوعيّة لدى المثقّفين هناك ارتبطت بحضور الحزب الشيوعيّ الفرنسيّ: صحيح أنّ عضويّته لم تكن في حجم العضويّة التي ضمّها الحزب الإيطاليّ، غير أن الشيوعيّين الفرنسيّين نجحوا في نيل ٢٨ في المائة من الأصوات الانتخابيّة في ١٩٤٦. لكنّ الحزب الفرنسيّ، وأيضاً على عكس الإيطاليّ، كان قليل التعاطف أو عديمه مع المثقّفين. وبينما كان المثقّف بالميرو توليياتي يقود الشيوعيّين الطليان، تولّى موريس توريز من ١٩٣٢ حتى وفاته في ١٩٦٤، وهو عامل مناجم ضيّق الأفق تحوّل بيروقراطيّاً حزبيّاً، قيادة شيوعيّي فرنسا. وكانت أهمّ ميزات توريز، في نظر ستالين، أنّه يُنفّذ ما يُطلب إليه من دون أسئلة.

أبعد من هذا جميعاً، أن المحاكمات المسرحيّة في أوروبا الشرقيّة ناقشها المثقّفون في باريس بحدّة استثنائيّة، ودافع بعضهم الكثير عنها، خصوصاً أن العديدين من ضحاياها الشيوعيّين الذين أودت بهم الستالينيّة كانوا قد عاشوا وعملوا في فرنسا. فلاسلو راجيك، مثلاً، كان انتقل إليها بعد انتهاء حرب إسبانيا الأهليّة في ١٩٣٩، وأرثر لندن سبق أن عمل مع المقاومة الفرنسيّة، فيما عاش ترايشو كوستوف طويلاً في باريس، كموظّف في السفارة البلغاريّة، قبل أن يُعتقل في صوفيا.

لا بل جُعلت باريس نفسها مسرحاً لمحاكمتين سياسيّتين واكبتا ما يجري في البلدان الشرقيّة: ففي ١٩٤٦، نشر فيكتور كرافشنكو، وهو موظف سوفياتيّ انشقّ وهرب، قبل عامين، إلى الولايات المتّحدة، مذكّراته بعنوان «اخترتُ الحرية». وقد أثارت نقاشاً حادّاً حول التصفيات والقمع في موسكو ونظام معسكرات التجميع أو «الغولاغ». وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧، ردّت مجلّة الحزب الشيوعيّ النظريّة «لي ليتر فرانسيز» بسلسلة مقالات تؤكّد أن كتاب كرافشنكو مجموعة أكاذيب فبركتها المخابرات الأميركيّة. لكنْ في نيسان (إبريل) ١٩٤٨، ساق كرافشنكو المجلّة إلى المحكمة فتحوّلت الدعوى محاكمة تواصلت أشهراً. يومها حشد الحزب الشيوعيّ عدداً هائلا من المثقّفين الذين شهدوا لصالحه، لكنّ كرافشنكو كسب الدعوى.

ثمّ في تشرين الثاني ١٩٤٩، وبعد أربعة أسابيع على إعدام لاسلو راجيك في براغ، نشر دفيد روسيتّ في «الفيغارو الأدبيّة» مناشدة للمساجين السابقين في المعسكرات النازيّة كي يساعدوه في عمل تحقيقيّ يؤدّيه عن المعسكرات السوفياتيّة. وكان رأيه أن تلك الأخيرة ليست مراكز لإعادة التعليم والتربية،

على ما يزعم النظام، بل هي نهج وبنية يتكاملان مع متطلّبات الاقتصاد السوفياتيّ ونظام العقوبات هناك. وبعد أسبوع، وأيضاً في «لي ليتر فرانسيز»، اتّهمه الكاتبان الشيوعيّان بيار داكس وكلود مورغان بتلفيق مصادره وتشويه سمعة الاتّحاد السوفياتيّ.

وكما فعل كرافشنكو، ذهب روسيتّ إلى المحكمة في دعوى أنتجت صدى ضخماً. فالكاتب اشتراكي لمدّة طويلة وقد مرّ على الحركة التروتسكيّة كما كان من أبطال المقاومة الفرنسيّة وسجين المعسكرات النازيّة، فضلاً عن صداقته لسارتر وعيشه في أجواء اليسار الثقافيّ. بذا جاء اتّهام شخص كهذا للاتّحاد السوفياتيّ يقطع مع التقليد اليساريّ والاصطفافات السياسيّة يومذاك. وأيضاً كسب روسيتّ الدعوى، ما أطلق بدايات تحوّل في الوعي التبريريّ لأفعال موسكو، فلم يتردّد موريس ميرلو بونتي في أن يعترف بأن «الحقائق مأخوذة معاً تطرح علامة استفهام على معنى النظام الروسيّ».

وهي عيّنات وأمثلة على أن المثقّفين حين يتعصّبون للقضايا النضاليّة، وللحسم والعنف، ينتهون مجافين للحقائق وللحريّة، مبرّرين للاستبداد تنظيماتٍ وأنظمةً. وبالطبع، وكما الحال دائماً، لجأ الشيوعيون إلى ابتزاز أصحاب الوعي النقديّ بعدم مناهضتهم الفاشيّة قبل أن يتّهموهم بخدمة المصالح الأميركيّة.

وعند توني جوت أن تجربة المعسكر السوفياتيّ مع مثقّفيه أنتجت معاني مُرّة لم تفُقْها مرارةً إلاّ تجربة النازيّة الألمانيّة مع المثقّفين. وفي الحالتين، ساد «الانشقاقُ» هذه العلاقة: فهو الانعطاف الكامل عن السائد والقطيعة التامّة معه، نظراً إلى استحالة الانعطاف الجزئيّ المعروف في الأنظمة الديمقراطية والمسمّى معارضة.

لكنّ الانشقاق لم يقتصر على النظامين المذكورين بشتّى تفرّعاتهما. فقد انشقّ في الوقت نفسه مثقّفون عن حركات توتاليتاريّة وشبه توتاليتاريّة لم يُقيّض لها أن تصل إلى السلطة. وهذا لئن أعفى المنشقّين أولئك من عذابات السجن والقمع الجسديّ، غير أنّه لم يُعفهم من معاناة الانفصال عن أجواء نشأوا فيها وعن صداقات بنوها داخل تلك الأحزاب التي انشقّوا عنها، كما لم يقلّل من قيمة ما أنتجوه إبداعاً كان أم إسهامات نظريّة.

وتجربة الأحزاب التي تطرد مثقّفيها بعد دفعهم إلى الانشقاق، أو ما يوازيه، قديمة قدم الأحزاب والمثقّفين: ذاك أن الأولى تميل إلى فرض الرأي الواحد والخطّ الواحد، بينما الآخرون تجتذبهم رحابة الآراء وتعدّدها، وحريّة التجارب وغناها.

التجربة الإيطاليّة

وهنا لا تزال تحتلّ تجربة الحزب الشيوعيّ الإيطاليّ موقعاً مميّزاً: فالشيوعيّة، من جهة، وعلى عكس الفاشيّة، لا تجهر بعدائها للثقافة ممّا هو تكوينيّ في الفاشيّة ذات المرتكز اللاعقلانيّ، بل، في المقابل، تتباهى بثقافيّتها المستمدَّة من تماسك بنائها النظريّ ومن تقصيرها المسافة بين الصعيد الاقتصاديّ وسائر الأصعدة، وفي عدادها الثقافة. ومن جهة أخرى، كانت السمة التي ميّزت الحزب الشيوعيّ الإيطاليّ عن جميع الأحزاب الشيوعيّة، شرقاً وغرباً، أن قيادته غالباً ما كانت في عهدة مثقّفين. وقد كان باليرو توليياتي، مثل أنطونيو غرامشي وسائر مؤسّسي الحزب قبل عشرين سنة، مثقّفاً بدوره، بل أذكى وأعرف القادة والأمناء العامّين الشيوعيّين. وفي العقد بعد الحرب العالميّة الثانية حافظ الحزب على تقليده، مُرحّباً بالمثقّفين، إن كأعضاء أو كحلفاء وأصدقاء، ساعياً على الدوام إلى ترطيب لغته بما لا ينفّرهم أو يثير حفيظتهم.

أمّا معادلة توليياتي الشهيرة فلم تكن، في هذا المعنى، قليلة الدلالة: إنّها «نصف كروتشه ونصف ستالين»، والأوّل، أي بينيديتو كروتشه، فيلسوف إيطاليا الأبرز في القرن العشرين، الذي قدّم دمجه المميّز بين الهيغليّة المثاليّة في الفلسفة وبين ليبراليّة القرن التاسع عشر في السياسة، مرجعاً أخلاقيّاً لجيل من المثقّفين المناهضين للفاشيّة. وقد تولّى العملَ بهذه المعادلة عدد من القادة الشيوعيّين الأذكياء والأصغر سنّاً من توليياتي، كجورجيو أمندولا ولوسيو لومباردو وبياترو إنغرانو وكارلو كاسّولا واميليو سيريني، وكلّهم وفدوا إلى الحزب من عالم الفلسفة والأدب. وبعد ١٩٤٦ انضمّ إلى هؤلاء رجال ونساء خاب أملهم ورهانهم على تحويل طموحات المقاومين وتطلّعاتهم أثناء الحرب الثانية إلى حزب يكون بديلاً علمانيّاً وراديكاليّاً من غير أن يكون ماركسيّاً.

لكنْ في ظل انقسام أوروبا وتوطّد الاستبداد شرقاً، تعرّضت قيادة توليياتي وحزبه لضغوط حادّة: فالنقد الذي وجّهه السوفيات للرفاق الإيطاليّين، في الاجتماع الأوّل للكومنفورم في أيلول (سبتمبر) ١٩٤٧، كشف عن رغبة ستالين في وضعهم، ووضع شيوعيّي فرنسا كذلك، تحت جناحيه، لا سياسيّاً فحسب، بل ثقافيّاً أيضاً. وهذا كان يعني تحديداً المطالبة بالإقلاع عن التعدّد لمصلحة تبنّي نظريّة غدانوف في عدم التوافق الكليّ بين «ثقافتين»، واحدتهما بورجوازيّة والأخرى بروليتاريّة.

ومع تدخّل واشنطن لمصلحة المسيحيّين الديمقراطيين في انتخابات ١٩٤٨، شرعت

السذاجة تتبدّى على سياسة توليياتي في العمل من ضمن المؤسّسات، ولم تعد رحبةً خياراته في الإبقاء على المزج بين ستالين وكروتشه. وهذا، بدوره، ما أثار تذمّر بعض المثقّفين الشيوعيّين الذين راحوا يميّزون بين ولائهم السياسيّ للحزب وبين ممارستهم الثقافيّة المستقلّة. لكنّ توليياتي لم يعد يرى الأمور هكذا: فهو كان قضى الثلاثينات في موسكو ولعب دوراً بارزاً في عمليّات الكومنترن الإسبانيّة إبّان الحرب الأهليّة أواخر ذاك العقد.

وهما تجربتان كانتا كافيتين لتطويع مُكوّنه الثقافيّ وحمْله على تقبّل الخضوع لأوامر الرفاق في موسكو. وبالنتيجة بدا أن على المثقّفين أن يقبلوا خطّ الحزب في الأدب والفنّ والأفكار، وإلاّ فما عليهم إلاّ أن يغادروا صفوفه. هكذا شهد العامان التاليان مزيداً من الخضوع لموسكو ومزيداً من ابتعاد المثقّفين عن حزبهم، وهو ما اعتُبر بداية المذبحة الفكريّة التي نزلت بحزب عُرف بالأفكار بقدر ما عُرف بالسياسة.

صحيح أن الحزب الإيطاليّ بقي أفضل من غيره حيويّةً وإقراراً بفسحةٍ ما تتمتّع بها استقلاليّة الرأي. وهذا إنّما عاد إلى تاريخ البلد وتجربته مع موسوليني التي جعلت المطالبة بالحريّة والاستقلاليّة مثل المطالبة بالهواء. فعلى مدى عشرين سنة من الحكم الفاشيّ استهدفت قوميّة موسوليني، بين أشياء أخرى استهدفتها، الثقافة والنفوذ الأجنبيّين، وقد تماشى تفضيلها الثقافة الإيطاليّة مع إجراءات «لحمايتها» في ميادين الفن والأدب تشبه الإجراءات الحمائيّة تجاه السلع الأجنبيّة الأخرى.

والحال أن كثيرين من المثقّفين، لا سيّما الأصغر سنّاً، كانوا ارتضوا دعم الدولة الفاشيّة ومساعداتها، خصوصاً أنّ البديل كان النفي أو الإسكات الكامل. حتّى الشيوعيّ البارز لاحقاً إيليو فيتوريني، نال جوائز أدبيّة عهد ذاك، وكان فيتوريو دو سيكا ممثّلاً معروفاً في أفلام الحقبة الفاشيّة قبل أن يصبح، بعد الحرب، المعبّر الأكبر عن الواقعيّة الجديدة. وبدوره، فإن زميله الواقعيّ الجديد، المخرج روبرتو روسلليني، الذي جاءت أفلامه لما بعد الحرب صريحة في شيوعيّتها وتعاطفها السياسيّ، كان قبل سنوات قليلة قد أخرج أعمالاً وثائقيّة وأفلاماً قصيرة في إيطاليا موسوليني بمساعدة من السلطات، وهو في هذا لم يكن استثناء.

والحال أن «الدوتشي»، حتى إطاحته في ١٩٤٣، ظلّ الحالة الطبيعيّة لكثيرين لم يعرفوا نظاماً آخر غير نظامه، وهو الدرس الذي كرّس قناعتهم الجديدة بأن الابتعاد عن المؤسّسات

الرسميّة وشبه الرسميّة شرط شارط للممارسة الثقافيّة. هكذا يمكن القول إن دروس التجربة الفاشيّة أثمرت معاندة لم تمكّن القيادة الشيوعيّة من تنفيذ مذبحتها الثقافيّة دفعة واحدة. إلاّ أن المذبحة، مع هذا، ابتدأت يومذاك.

وكان كتّاب ومؤرّخون كثيرون قد تناولوا انطواء تاريخ العلاقة بين الثقافة الغربيّة والماركسيّة على فصول عدّة متفاوتة. فالماركسيّة، في الأصل، إحدى بنات تلك الثقافة. إلاّ أن انتصار الحزب الشيوعيّ- البلشفيّ في روسيا عام ١٩١٧ وما ترتّب عليه من نظام توتاليتاريّ، خلق أولى الأزمات بين الطرفين. فمن جهة، عملت روسَنَة الماركسيّة على تبعيدها عن جذرها الأوروبيّ، وهو ما يمكن قراءته في أعمال ماركسيّين إصلاحيّين ككاوتسكي، بل أيضاً ماركسيّين ثوريّين كروزا لوكسمبورغ. ومن جهة ثانية، بدأ السعي الليبراليّ الأوروبيّ إلى اكتشاف جذور الماركسيّة في التقليد الاستبداديّ داخل الفكر الغربيّ نفسه.

وهذا ما سار بموازاة انفكاك العلاقة بين المثقّفين اليهود، الأمميّين أو الكوزموبوليتيّين، الذين كان أحد تقاليدهم الرهانَ على أن تأتي الأمميّة الثوريّة بعلاج المسألة اليهوديّة، وبين الوعي الماركسيّ الذي انعطف، على يد ستالين، انعطافة شديدة باتّجاه قوميّ وبوليسيّ.

العداء للشيوعيّة

بعد ذاك، وما بين أواسط الثلاثينات وأواسط الخمسينات، أي ما بين قيام «الجبهات الشعبيّة» وسحق ثورة هنغاريا، مروراً بالصراع ضدّ الفاشيّة والحرب العالميّة الثانية، سجّل المناخ الثقافيّ، لا سيّما في فرنسا، تقاطعاً عريضاً بين البيئتين الشيوعيّة والثقافيّة. ولربّما حمل اسم جان بول سارتر التلخيص الأبرز لهذا اللقاح الذي عزّزه عداء الطرفين للكولونياليّة الغربيّة كما للولايات المتّحدة. بيد أنّه، وقبل أواسط الخمسينات، مع اتّضاح الطبيعة الستالينيّة وانقشاعها كونيّاً، تململت الحياة الفكريّة والثقافيّة في الغرب على إيقاع سجاليّ لا يمكن من دونه فهم الحقبة اللاحقة البادئة أواسط الخمسينات، أو هذا، على الأقلّ، ما يراه توني جوت.

والحقّ أن العداء للشيوعيّة قديم قدم الشيوعيّة ذاتها، وهو متعدّد الأسباب والحوافز. وحتّى إبّان الحرب العالميّة الثانية والتحالف الغربيّ مع موسكو ضدّ النازيّة، لم تفتر مناهضة الشيوعيّة التي تشكّلت على الدوام في كتلة عديمة التجانس تمتدّ من أقصى اليسار التروتسكيّ إلى أقصى اليمين الفاشيّ، فضلاً عن المؤمنين وأشباه المؤمنين. وعدم التجانس هذا كان ما يسهّل على المساجلين الشيوعيّين مهمّتهم.

وقد عرفت، على مدى ثلاثين عاماً، بلدان كفرنسا وبريطانيا مثقّفين محافظين لم يتغيّر كرههم للشيوعيّة. ففيهما، كما في ايطاليا، لعب كتّاب وأدباء كاثوليك دوراً بارزاً في السجالات المناهضة لها، بينهم إيفلين واف وغراهام غرين اللذان مثّلا التقليديّة الكاثوليكيّة البريطانيّة. لكنْ بينما كانت الوجهة هنا تتّخذ شكل التصدّي للحداثة أو الانكفاء عنها، فإن فرنسيّاً كاثوليكيّاً كفرانسوا مورياك لم يتردّد في أن يدخل المعترك السياسيّ بصورة مباشرة. وهو، على مدى تورّطه المديد في الشأن العام لما بعد الحرب الثانية، إذ كتب بلا انقطاع لـ«الفيغارو» (اليوميّة الفرنسيّة)، حافظ على حججه المكفّنة باللغة الأخلاقيّة، جامعاً بين شديد عدائه للشيوعيّة وبين قدر لا بأس به من العداء الأخلاقويّ لـ«القيم الغريبّة» التي يضخّها المجتمع الأميركيّ. وككثيرين من المحافظين الأوروبيّين، لم يكن مورياك مرتاحاً إلى التحالف مع واشنطن إبّان الحرب الباردة.

لكنّ هذا لم يطرح أيّة مشكلة على الليبراليّين الواقعيّين كالفرنسيّ ريمون أرون: فالأخير، مثل كثيرين من «الحرب باردّيين»، كانت عواطفه حيال الولايات المتّحدة في نموذجها واقتصادها، أقرب إلى النقديّة. غير أن أرون فهم الحقيقة المركزيّة للسياسة الأوروبيّة بعد الحرب، وهي تداخل صراعات الداخل والخارج: فقد كتب، مثلاً، صيف ١٩٤٧: «بالنسبة للأفراد كما للأمم في أزمنتنا، فإن الخيار الذي يقرّر كلّ ما عداه خيار كونيّ، وهو في الحقيقة خيار جغرافيّ. فإما أن يكون المرء في نطاق البلدان الحرّة وإلا ففي أراضٍ فُرض عليها الوقوع تحت الحكم السوفياتيّ الفظّ. ومن الآن فصاعداً، على كلّ واحد في فرنسا أن يحسم خياره»، أو كما طرح المشكلة في صياغة أخرى: «إنه ليس أبداً صراعاً بين الخير والشرّ، لكنّه بين المفضّل والمُقرف».

وهكذا كان المثقّفون الليبراليّون وغير الدينيّين، بصنفيهما القاريّ، كأرون ولويجي إيناودي، أو البريطانيّ كأشعيا برلين، أشدّ شعوراً بالارتياح من سائر المحافظين حيال التحالف مع أميركا بوصفه فرضاً من التاريخ عليهم. والأمر نفسه، ولو في سياق مغاير، يصحّ في الاشتراكيّين الديمقراطيين: وهذا ما عاد جزئيّاً إلى أن روزفلت كان لا يزال طريّاً في الذاكرة، كما أن الكثيرين من الديبلوماسيّين وصنّاع القرار الأميركيّين الذين تعامل معهم الأوروبيّون كانوا من أنصار «النيو ديل» (الصفقة الجديدة) الذين أيّدوا قيام الدولة بدور نشط في السياسات الاقتصاديّة والاجتماعيّة. لكنّ ذلك نجم أيضاً عن السياسات الأميركيّة ذاتها. فالنقابات

والمخابرات والخارجيّة الأميركيّة، سواء بسواء، رأت في الأحزاب العمّاليّة والاشتراكيّة الديمقراطية المستندة إلى النقابات أفضل عازل في وجه النموّ الشيوعيّ، خصوصاً في فرنسا وبلجيكا. أمّا في إيطاليا فاختلفت الخريطة السياسيّة إذ راهن الأميركيّون على المسيحيّين الديمقراطيين.

وحتّى أواسط ١٩٤٧ ظلّ التعويل على اليسار غير الشيوعيّ موضوعاً إشكاليّاً. لكنْ بعد طرد الأحزاب الشيوعيّة من حكومات فرنسا وبلجيكا وإيطاليا، وخصوصاً بعد الانقلاب الشيوعيّ على الديمقراطية في تشيكوسلوفاكيا في شباط (فبراير) ١٩٤٨، اكتمل انفصال شيوعيّي أوروبا واشتراكيّيها، وحصلت صدامات عنفيّة بين نقابيّي الطرفين كما بين شيوعيّين مضربين ورجال شرطة يأمرهم بالقمع وزراء اشتراكيّون، فيما كانت تنتشر في الغرب أخبار أوروبا الشرقيّة عن اشتراكيّين يتعرّضون للاعتقال. وهذا جميعاً ما حوّل الاشتراكيّين الديمقراطيين في أوروبا الغربيّة إلى بعض ألدّ أعداء الاتّحاد السوفياتيّ، وجعلهم على استعداد لتلقّي كلّ معونة ممكنة من الولايات المتّحدة. يصحّ هذا في قادة اشتراكيّين كمثل ليون بلوم في فرنسا وكورت شوماخر في ألمانيا.

على أن الجيل الأصغر الذي عاش التحالف مع الشيوعيّين في سنوات المقاومة وجد المسألة أصعب: فألبير كامو الذي انضمّ لفترة قصيرة في الجزائر، إبّان الثلاثينات، إلى الحزب الشيوعيّ، خرج من الحرب الثانية بقناعة صلبة شاركه إيّاها أبناء جيله عن ضرورة الإبقاء على ائتلاف المقاومة الذي يضمّ الشيوعيّين والاشتراكيّين والإصلاحية الراديكاليّة من كلّ نوع.

وقد كتب في ١٩٤٤ من الجزائر أن «مناهضة الشيوعيّة بداية ديكتاتوريّة». بيد أن الشكوك بدأت تساور كامو مع المحاكمات والتصفيات في فرنسا بعد الحرب، حينما اتّخذ الحزب الشيوعيّ موقفاً متصلّباً، بوصفه حزب المقاومة، وطالب بالعزل والسجن وعقوبة الموت للآلاف من المتعاونين الحقيقيّين أو المتوهَّمين. وتدريجاً تعاظمت شكوك كامو بحسن نوايا حلفائه السياسيّين، حتّى إذا أصدر روايته «الطاعون» في ١٩٤٩ ترك لبطله تارّو أن يعلن: «لقد قررت أن أرفض كلّ شيء يجعل الناس، مباشرة أو مداورة، يموتون، أو يبرّر الآخرين الذين يجعلونهم يموتون».

وعلى أيّ حال ظلّ كامو متردّداً في إعلان خلافه مع أصدقائه في اليسار، محاولاً أن يوازن بين النقد النزيه للستالينيّة وإشاراته المتوازنة و«الموضوعيّة» للعنصريّة الأميركية والجرائم الأخرى التي تُرتكب في المعسكر

الرأسماليّ. لكنّ المحاكمات المسرحيّة في أوروبا الشرقيّة وامتداداتها في فرنسا أنهت ذلك. وقد اعترف في ملاحظاته الشخصيّة قائلاً: «واحدٌ ممّا ندمت عليه أنني تنازلت كثيراً للموضوعيّة (...) أبداً لن أكون مهذّباً مرّة أخرى».

قبل ذلك وفي ١٩٤٧ تحدث ايغناتزيو سيلون في مؤتمر لجماعة «القلم» الدولية عن «كرامة الذكاء وعدم أهليّة المثقّفين»، فأعلن ندمه على صمته وصمت رفاقه من مثقّفي اليسار: «مثلما تودع الدبّابات في المخازن، أودعنا على الرفّ مبادئ الحريّة للجميع والكرامة الإنسانية». ومثل سيلون الذي مضى في هذا الطريق، مضى كامو مطوّراً موقفه النقديّ من الأوهام «التقدميّة»، وهو ما تتوّج في إدانته العنف الثوريّ في مقالة شهيرة له عام ١٩٥١ تأدّت عنها قطيعته مع رفاقه في اليسار الباريسيّ. فعند سارتر، أن الواجب الأوّل للمثقّف الراديكاليّ ألاّ يخون العمّال، أما الشيء الأهمّ عند كامو، كما عند سيلون، فهو ألاّ يخون نفسه. هكذا ارتسمت بالكامل خطوط جبهة الحرب الباردة الثقافيّة.

العداء لأميركا

ويدلّنا توني جوت إلى موقع العداء للولايات المتّحدة في هذه السيرورة. فأوروبا الغربيّة عرفت الظاهرة تلك، وكان أكثر ما يلفت النظر السياق الذي لفّها وأحاطها: ذاك أن العداء الأوروبيّ لأميركا إنّما انفجر تحديداً بعد تحرير الولايات المتّحدة للأوروبيّين من الاحتلال الألمانيّ النازيّ، وإبّان تقديم واشنطن مساعداتها لإعادة بناء القارّة من ضمن «مشروع مارشال» الشهير.

فإذا حكمنا انطلاقاً من هذا المنظور، قلنا إن ذاك العداء كثيراً ما يتغذّى من اعتداد بالذات يجعل من غير المقبول الإقرار بمساعدة أميركا أو الاعتراف بقوّتها وتفوّقها. ولم يكن مصادفاً أن تتحوّل فرنسا إلى المسرح الأشدّ احتواء لهذه المواقف السلبيّة، وهي الأكثر اعتداداً بذاتها وبدور عالميّ مارسته منذ الثورة الفرنسيّة في ١٧٨٩، كما أنّها في الوقت نفسه البلد الذي غزاه هتلر وأذلّه فيما تُرك للأميركيّين والبريطانيّين أن يحرّروه. والغريب أن الاستغلال السوفياتيّ يومها لهذا العداء الأوروبيّ، خصوصاً منه الفرنسيّ، إنّما ترافق مع انتشار سخافات ورمزيّات من النوع الذي لا نزال نشهده اليوم في فرنسا حروباً ضدّ «كوكا كولا» و«ماكدونالدز» و«ستار بكس» وغيرها.

لقد ركّزت حملات اليسار الثقافيّ كما السياسيّ، في أوروبا أواخر الأربعينات، على الولايات المتّحدة. وكان التركيز هذا يشتدّ في موازاة انكشاف النظام الستالينيّ وفظائعه، خصوصاً أنّ الحرب العالميّة الثانية حملته على الامتداد إلى أوروبا الوسطى والشرقيّة وأخضعت له ملايين البشر وعديد البلدان. فالولايات المتّحدة ومعها ألمانيا الفيدراليّة أو الغربيّة كانتا الهدف المباشر للعنف اللفظيّ اليساريّ والشعبويّ.

وقد نهض التكتيك هذا على فرضيّة ضمنيّة مفادها أن أميركا ليست شعبيّة جدّاً في أوروبا الغربيّة على رغم دعمها السخيّ لإعادة البناء الاقتصاديّ الأوروبيّ، بل في بعض الأوساط، بسبب ذاك الدعم. ففي صيف ١٩٤٧، كان أكثر من ٦٠ في المائة من البالغين الفرنسيّين يظنّون أن «مشروع مارشال» يطرح خطراً جدّيّاً على استقلال فرنسا ويتهدّده. وقد ذهب التشكيك بالأغراض الأميركيّة أبعد، تعزّزه بدايات التدهور في العلاقات الدوليّة وما استجرّته من مخاوف، لا سيّما مع اندلاع الحرب الكورية عام ١٩٥١. لهذا فإن التهم الشيوعيّة المفبركة عن أن الأميركيّين يستعملون أسلحة بيولوجيّة في كوريا وجدت في باريس كلّ الآذان الصاغية واستحضرت كافّة التنديدات الملازمة.

والحال أنّ الخوف من السيطرة الأميركيّة ومن الانتقاص من سيادات دول أوروبا جذب الكثيرين يومها إلى المعسكر «التقدّميّ». فبالقياس إلى فقر الدول المذكورة ودمارها، واعتمادها الماليّ على واشنطن، بدت أميركا هيوليّة اقتصاديّاً وفي الوقت نفسه ظلاميّة ثقافيّاً.

وهو مركّب قاتل لم يُعدَم تعبيراته: ففي تشرين الأوّل ١٩٤٩، أي في السنة الثانية لـ«مشروع مارشال»، ومع وضع اللمسات الأخيرة على حلف الناتو، أخبر الناقد الثقافيّ الفرنسيّ بيار إيمانويل قرّاء جريدة «لوموند»، في عبارة صارت شهيرة لاحقاً، أن هديّة أميركا الكبرى لأوروبا ما بعد الحرب ليست سوى... القضيب الذكريّ ودفع أرض ستاندال إلى أن تعبد القضيب! وبعد ثلاث سنوات ذكّر محرّرو مجلّة «إسبري» المسيحيّة قرّاءهم بـ«أننا حذّرنا منذ البداية من المخاطر التي تطرحها على جودة وضعنا الوطنيّ ثقافة أميركيّة تهاجم جذور التجانس الذهنيّ والأخلاقيّ لشعوب أوروبا».

في غضون ذلك كانت سلعة أميركيّة سامّة تنتشر في القارّة الأمّ: فبين ١٩٤٧ و١٩٤٩ أنشأت شركة «كوكا كولا» معامل تعبئة في هولندا وبلجيكا ولوكسمبورغ وسويسرا وايطاليا. وصارت ألمانيا الغربيّة، ولم ينقض

غير خمس سنوات على قيامها، تضمّ ٩٦ مصنعاً كهذا، كما أضحت السوق الأكبر لـ«الكوكا» خارج الولايات المتّحدة. لكنْ بينما أثار الأمر بعض الاعتراضات في بلجيكا وايطاليا، ففي فرنسا انطلقت عاصفة عارمة، لا سيّما حين ذكرت «لوموند» أن «كوكا كولا» وضعت هدفاً لها هو بيع ٢٤٠ مليون قنينة في ١٩٥٠، فكان ذلك مثار اعتراضات مرتفعة النبرة شجّعها الشيوعيّون محذّرين من أن خدمات التوزيع التابعة للشركة ستشكّل، بدورها، شبكة للتجسّس.

وفي افتتاحية لها في ٢٩ آذار (مارس) ١٩٥٠، كتبت «لوموند» أن «كوكا كولا هي دانزيغ الثقافة الأوروبيّة». وكان للضجيج حول «استعمار كوكا» جانبه الذي لا يُخفي خفّته، فسرت شائعات بأن الشركة تنوي إلصاق شعارها وهو مُضاء على برج إيفل. غير أن المشاعر الكامنة وراء الحملة كانت ثقيلة وجدّيّة، جوهرها رفض لأميركا يتشارك فيه اليسار واليمين. فإذا كان الاتّحاد السوفياتيّ يطرح خطراً مباشراً على أوروبا، فإن أميركا هي التي تطرح التحدّي الأبعد مدى. وهذا الرأي إنّما عزّزته حرب كوريا، خصوصاً عندما بدأت واشنطن بممارسة الضغط لإعادة تسليح ألمانيا الغربيّة. فقد بات في وسع الشيوعيّين أن يهاجموا «النازيّين السابقين» في بون بتهمة أن أميركا تدعم تسلّحهم. وكان الأمر مقدّمة لدورة جديدة من الديماغوجيا السياسيّة والدعويّة التي تبادلها الطرفان وتحوّل العديد من عواصم العالم مسارح لها.

ويتناول جوت مطوّلاً دور ستالين. فبالاستفادة من مشاعر العداء للحرب، وخوفاً من شبح «سيطرة أميركا»، أطلق الديكتاتور الشيوعيّ، بعد الحرب العالميّة الثانية، حركة للسلم العالميّ. والحال أنه منذ ١٩٤٩ حتى وفاته في ١٩٥٣، ظلّ «السلم» ركيزة الإستراتيجية الثقافيّة المعلنة لروسيا.

لقد أنشئت حركة «أنصار السلم» في بولندا صيف ١٩٤٨ خلال «مؤتمر عالميّ للمثقّفين»، وهو نشاط ما لبث أن وجد ما يوازيه ويواكبه من امتدادات في باريس ونيويورك. لكنْ بوصفها تنظيمات ـ واجهات من النوع المعروف في الأنظمة التوتاليتاريّة، تولّى علماء ومثقّفون كبار، كفريدريك جوليوت كوري، قيادة تلك الحركة فيما بقيت للشيوعيين السيطرة الفعلية عليها، كما كانت نشاطاتها منسّقة مع الكومنفورم. وبدوره فالأخير، المنظّم لأعمال الأحزاب الشيوعيّة في العالم، صارت مجلته الصادرة في بوخارست تحمل شعار «من أجل سلام دائم وديمقراطية شعبيّة».

وبالفعل حصدت حركة السلم نجاحاً

ملحوظاً. فالمناشدة التي أطلقتها في ستوكهولم في آذار ١٩٥٠ «اللجنة الدائمة للمؤتمر العالميّ لأنصار السلم»، حصلت على ملايين عدّة من التواقيع في أوروبا الغربيّة، فضلا عن عشرات الملايين في بلدان الكتلة السوفياتيّة. والراهن أن جمع هذه التواقيع كان المهمّة الأساسيّة للحركة، لا سيّما في فرنسا حيث أحرزت أكبر الدعم وأقواه. وظهرت، تحت مظلّة السلام، منظّمات واجهيّة أخرى تؤكّد كلّها أن الاتّحاد السوفياتيّ يقف في جانب السلام فيما الأميركيّون وأصدقاؤهم في كوريا ويوغوسلافيا التيتويّة والحكومات الأوروبيّة الغربيّة هي حزب الحرب.

وقد وجدت هذه الدعاية استقبالاً هائلاً من دون أيّ انتباه إلى وظيفيّة موقف الشيوعيّين حيال حركات كتلك. فحركة السلم لم تكن غير قاطرة لسياسات موسكو، ولهذا رأيناها تتبنّى في ١٩٥١ شعار «التعايش السلميّ» انطلاقاً من تحوّل طرأ على إستراتيجية ستالين الدوليّة، علما بأن الشيوعيّين لم يملكوا غير الاحتقار لرفاق طريقهم السلميّ: إنهم، في نظرهم، «بلهاء مفيدون» حسب تعبير للينين.

وبطبيعة الحال استدعت هذه النجاحات السوفياتيّة، بذريعة السلم والتخويف من أميركا، ردّاً ثقافيّاً غربيّاً ولو جاء متأخّراً: هكذا تأسّست في ١٩٥٠ في برلين «جبهة» ثقافيّة سمّت نفسها «المؤتمر من أجل الحريّة الثقافيّة»، وجاء الهدف من اختيار برلين، لا باريس مثلاً، نقل المعركة إلى موسكو مباشرة. وكان للمؤتمر هذا رعاته الثقافيّون من أصحاب الأسماء الكبيرة كبرتراند راسل وبنيتو كروتشه وجون ديوي وكارل ياسبرز والفيلسوف الكاثوليكيّ الفرنسي جاك ماريتاين. ولئن أضفى هؤلاء المسنّون الاحترام على المشروع فإن طاقته العمليّة وفّرها جيل أصغر سنّاً من المثقّفين الليبراليّين والشيوعيّين السابقين المتحوّلين عن الشيوعيّة كأرثر كوستلر وريمون آرون وإيغانتزيو سيلون وسيدني هوك وسواهم.

جبهة أم حكومات؟

لكنّ البائس أن تحويل الثقافة إلى «جبهة» أوقع العمل الثقافيّ في حضن الحكومات ومشاريعها. فالجهد المبذول في الجانبين ذهب معظمه هدراً وتبديداً. ففي الغرب، لم يلبث المشروع هذا، المدعوم أميركيّاً، أن أنشأ مكاتب له في ٣٥ بلداً وإن ظلّت أوروبا مجال تركيزه، لا سيّما فرنسا وإيطاليا وألمانيا. وكان الهدف تجميع وتحفيز المثقّفين للنضال ضدّ الشيوعيّة، خصوصاً من خلال نشر وتوزيع مجلّات ثقافيّة كـ«إنكاونتر» في بريطانيا و«بروف» في فرنسا و«تيمبر بريسنت» في ايطاليا و«دير مونا» في المانيا.

لكن أيّاً من هذه المجلاّت لم تحرز الكثيرين من القـرّاء، فيما تباهـت «إنكاونتر»، أكثرها نجاحـاً، ببلوغهـا ١٦ ألف قـارئ في ١٩٥٨. لقـد حظي «المؤتمر»، رسـميّاً وعلنيّـاً، بدعم «فـورد فاونديشـن» وضمناً وكالـة المخابرات المركزيّـة (السـي أي آي)، وهو مـا لم يعرف به في حينه معظم ناشـطي وكتّاب المشـروع، وظلّ الأمر هكذا إلى أن انكشـف بعد سنوات طويلة. مع هذا بقي أن أرون وكوستلر وسيلون ما كانوا بحاجة للسـي أي آي كي يكتبوا ضدّ الشـيوعيّة، فضلاً عن أن انتقاداتهم للولايات المتّحدة لم تتغيّر ولم تُلطّف.

فـي المقابـل، خيـض «النضـال مـن أجل السلم»، كما أسـماه الإعلام الشيوعيّ، على «الجبهـة» الثقافيّـة عبـر «معركـة الكتـاب» (حيـث تُلاحَظ اللغـة اللينينيّة المعسـكَرة). وقـد ظهـرت النشـاطات الأولـى في فرنسـا وبلجيـكا وإيطاليـا ربيـع ١٩٥٠. هكذا راح كتّـاب شـيوعيّون بـارزون كإيلسـا تريوليـه ولويـس أراغون يقصدون بلـدات ريفيّة نائية لإلقاء محاضـرات وتوقيع كتب لهذا الغرض. لكـنّ هذا لم يخدم القضيّة بدليل أن اثنين من الكتـب الأكثر مبيعاً في فرنسـا ما بعد الحرب كانا لأرثر كوستلر «العتمة في الظهيرة» الذي بـاع ٤٢٠ ألـف نسـخة خـلال ١٩٤٥–٥٥ و«اختـرت الحريّة»، المذكور أعـلاه، لفيكتور كرافشـنكو الـذي باع ٥٠٣ آلاف نسـخة في الفترة نفسـها، وهما من كلاسيكيّات الكتب المناهضة للنظام الشيوعيّ.

ومن طينة دعائيّة مشابهة جاءت الاستجابة الأميركيّة، فتمثّلت في إنشاء «بيوت أميركا» التي ضمّـت مكتبات وغرفاً لقـراءة الصحف واسـتضافة محاضريـن ولقـاءات وصفوفـاً لتعليـم اللغـة الانكليزيّـة. وفـي ١٩٥٥ بلغ عـدد هذه البيوت ٦٩ فـي أوروبا، وفي بعض بلدانهـا كان لها وقع مميّز: ففي النمسـا حيث شـهدت سـنوات مشروع مارشـال طبع ١٣٤ مليون نسـخة بالانكليزيّة لكتب وُزّعت على نطاق وطنيّ، زارت نسـبة معتبرة من السكان تلك البيوت لاسـتعارة كتـب وقراءة صحف، كما حلّت دراسـة الانكليزيّة محل الفرنسـيّة واللغـات الكلاسـيكيّة بوصفها الخيـار الأوّل للطلاّب الثانويّين النمسويّين.

لكـنْ كمثل المحطّـات الإذاعيـة الأميركيّة (وكان «راديـو أوروبـا الحـرّة» قـد افتتـح فـي ميونيـخ بعد شـهر علـى انـدلاع الحرب الكوريّـة)، كثيـراً مـا أسـاءت جلافـة اللغة الدعائيّة ومباشرتها إلى برامج «بيت أميركا». ففي ذروة سنوات المكارثيّة، جهد مدراء تلك «البيـوت» لإزالـة كتب «غير مرغـوب فيها» مـن الرفوف. وكان من الكتّاب الذين اعتُبرت أعمالهـم «غيـر ملائمـة»، وهم بالعشـرات،

ألبرت أينشتاين وتوماس مان وألبرتو مورافيا وتوم باين وهنري ثورو، فضلاً عن «مشتَبَه بهم» كجون دوس باسوس وأرثر ميلر ودشيل هاميت وأبتون سنكلير. لقد كانت الولايات المتّحدة في «معركة الكتب»، مثلها مثل روسيا السوفياتيّة، خصم نفسها الأوّل.

لكنْ، لحسن حظّ الغرب، كان للثقافة الشعبيّة الأميركيّة، لا للثقافة الدعائيّة والرسميّة، جاذبيّة عجزت سياسات الحرب الباردة عن تلطيخها. وبالفعل بدا الشيوعيّون قاصرين جدّاً في رفضهم الرسميّ للجاز والسينما الأميركيّين «المتفسّخين»، حيث اتّخذوا من المواقف المتشنّجة ما يذكّر بآراء جوزف غوبلز. وبينما راحت الدول الشيوعيّة في أوروبا الشرقيّة تمنع الجاز كفنّ «متفسّخ» و«غريب»، عوّض «راديو أوروبا الحرّة» عن حماقاته بأن بثّ إلى تلك البلدان ثلاث ساعات يوميّاً من تلك الموسيقى، لم تكن تقطعها إلاّ نشرة أخبار لمدّة عشر دقائق كلّ ساعة. ولئن تمكّنت الأنظمة التوتاليتاريّة من السيطرة على السينما الأميركيّة وتدفّقها، كانت للأفلام الأميركيّة على أوروبا الغربيّة جاذبيّة لا تُقاوَم. وهنا لم تملك الدعاية السوفياتيّة ما تنافس فيه، وراح يساريّون ينجذبون إلى تلك السينما والموسيقى ضدّاً على توجّهات أحزابهم.

وبالفعل ففي مجال الأدب والفنّ، وبفعل حماقات الستالينيّة، فصل المثقّفون الغربيّون أنفسهم على نحو تصاعديّ عن موسكو. وعلى النطاق الشعبيّ الأوسع، راح السوفيات يخسرون الأرض بسرعة: ففي كلّ مكان ما عدا إيطاليا، بدأ التصويت للشيوعيّين يتراجع منذ أواخر الأربعينات، وصار بعض الذين يصوّتون لهم لا يقصدون بذلك أكثر من علامة احتجاج رمزيّ.

نيكيتا خروتشوف

ويواكب توني جوت محطّات التردّي التي أصابت العلاقة بين الشيوعيّة والثقافة والتراجع التدريجيّ للأوهام، حيث يحتلّ نيكيتا خروتشوف وتجربته موقعاً مميّزاً.

فقد بدا التغيير الثقافيّ موضوعاً مهمّاً منذ رحيل ستالين في ١٩٥٣، لقطع الطريق على احتمالات التعبير الصاخب والمتجرئ على السلطة. فورثة لينين كلّهم أخذوا عنه قلقه الشهير من النقد والنقّاد الذي كان يفوق قلقه من المبادئ. لهذا فإن المعارضة الفكريّة والثقافيّة، بغضّ النظر عن مدى صداها في الحزب أو خارجه، ظلّت مما يثير حساسيّة القادة الشيوعيّين بمن فيهم خروتشوف.

وبعد إدانته الأولى لستالين في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعيّ السوفياتيّ عام

١٩٥٦، انتشر التفاؤل في الاتّحاد السوفياتيّ وخارجه بأنّ الرقابة سوف تسترخي وأنّ فسحة ما سوف تُتاح للانشقاق والنقد «المدروسين». ومع أن المتاح كان مدروساً جدّاً، بدليل أن السنة نفسها سجّلت رفض نشر رواية بوريس باسترناك «دكتور جيفاغو» التي قدّم مخطوطتها للمجلّة الأدبيّة الرسميّة «نوفي مير»، فإن الكرملين سريعاً ما أقلقه صعود ما اعتبره تراخياً وتحرّراً زائداً في الحيّز الثقافيّ.

هكذا بدأ التراجع في ١٩٥٩ بينما إدارة أيزنهاور – التي شاء أن يقايضها خروتشوف في العلاقات الدوليّة، فـ«يأخذ» منها مقابل ما «يعطي» من حريّات لشعبه ومثقّفيه – تقضي سنتها الأخيرة في البيت الأبيض. وراح «الأمين العامّ» عامذاك يلقي خطابات عدائيّة مدافعاً عن «الواقعيّة الاشتراكيّة» في الفنون ومهدّداً نقّادها بنتائج وخيمة إذا ما مضوا في تحدّيها. وفي الوقت نفسه وجّهت السلطات الروسيّة، أيضاً في ١٩٥٩، ضربتها لرجال الدين الأرثوذكس والمعمدانيّين، بعدما شكّل الدين شكلاً من الانشقاق الثقافيّ الذي سُمح له، إثر وفاة ستالين، بشيء من الحريّة.

على أيّ حال، كانت كلّ مقارنة بين خروتشوف وسياسته وبين الشيوعيّة الصينيّة وسياستها تعمل على تخفيف صورة التراجع السوفياتيّ وتؤكّد على ما هو منفتح ومتطوّر في توجّهات موسكو. ومنذ المؤتمر الثاني والعشرين للحزب السوفياتيّ في تشرين الأوّل ١٩٦١ وما تلاه من تنافس مع بكين على النفوذ الكونيّ، حاولت روسيا أن تكسب لنفسها وجهاً جديداً ينطوي على شيء من الالتباس. هكذا أجيز، في ١٩٦٢، لأستاذ مدرسة ريفيّ مغمور هو ألكسندر سولجنتسين أن ينشر روايته المتشائمة و«المخرّبة» «يوم في حياة إيفان دينيزوفيتش» في «نوفي مير».

يومها كان جون كينيدي نزيل البيت الأبيض فيما «الجبّاران»، كلّ بطريقته، يوالي التبشير بالتعايش السلميّ والانفتاح. بيد أن التسامح النسبيّ والملتبس، إذا صحّ الوصف، لسنوات خروتشوف الأخيرة، بما فيه بعض التجريب الحذر، لم يغد نقداً مباشراً للقيادة السوفياتيّة. هكذا استمرّت روحيّة ١٩٥٩، أي نهج الارتداد الذي استقطب القادة الشيوعيّين المنقلبين على خروتشوف بزعامة بريجنيف وميكويان وكوسيغين. وبالفعل فمع الانقلاب في تشرين الأوّل ١٩٦٤ تغيّر كلّ شيء بسهولة ما بعدها سهولة. وتبيّن إذّاك أن الخروتشوفيّة كانت لحظة شاردة في تاريخ الشيوعيّة الروسيّة، لحظةً لا يُعوّل عليها. هكذا عادت سنوات المرارة لتخيّم نيّفاً وعشرين عاماً على صدر الاتّحاد السوفياتيّ إلى أن ظهر ميخائيل غورباتشوف الذي أراد الإصلاح

للإصلاح وليس للتفاوض مع واشنطن.

ويلاحظ توني جوت كيف أن بريجنيف، وعلى خطى سائر المستبدّين، جعل المثقّفين موضوع التمرين الأوّل على ممارسة القمع والتشدّد. فخلال أشهر من تولّيها السلطة، بدأت قيادة الكرملين الجديدة الضغط على الانتلجنسيا ومن يُشتبه به الانتماء إليها أو الصلة بدوائرها. هكذا، وبعد عدد من التحذيرات الصارمة اللهجة التي حملتها صحافة موسكو الحزبيّة والرسميّة (والشيئان شيء واحد)، اعتُقل، في أيلول ١٩٦٥ كاتبان شابّان هما أندريه سينيافسكي ويولي دانيال. وشيئاً فشيئاً راحت القصّة تتدحرج وتكبر كما كرة الثلج متجاوزةً حدود الاتّحاد السوفياتيّ نفسه.

ما هي الجريمة التي اقترفها المذكوران؟ إنّهما، وباسمين مستعارين اختاراهما هما أبرام تيرتز ونيكولاي أرزهاك، هرّبا للنشر في البلدان الغربيّة عدّة أعمال أدبيّة سوفياتيّة مغضوب عليها أو ممنوع نشرها في الداخل، أو أن أصحابها لا يجرؤون على الإفصاح عنها أصلاً لمعرفتهم بالنتيجة سلفاً. كذلك نشر الاثنان في الإعلام الغربيّ مقالة نقديّة قصيرة وصريحة حول الأدب السوفياتيّ الحديث أعطياها عنوان «حول الواقعيّة الاشتراكيّة».

والمعروف أن «الواقعيّة الاشتراكية» ما هي إلاّ المعتقد الرسميّ الذي يُحاكَم العمل الأدبيّ بموجبه ويُقيّم منذ استقرار السلطة البلشفيّة في الاتّحاد السوفياتيّ. ثمّ، وفي شباط ١٩٦٦، أُخضع الأديبان الشابّان للمحاكمة، وكان لا بدّ من خدعة تعتمدها السلطة لتبرير فعلتها هذه: فطالما لم يوجد في الاتّحاد السوفياتيّ حينذاك قانون يحرّم النشر خارج البلد، زعمت السلطة أن مضمون أعمالهما هو بذاته شهادة على ارتكابهما جريمة «مناهضة السوفيات» الخيانيّة.

حازم صاغية